أساليب التآمر على اللغة العربية الفصحى

أ.د.بوجمعة جهيلة

لقد تنبه الاستعمار والتبشير والاستشراق والتغريب إلى مدى أهمية اللغة العربية الفصحى في الحفاظ على الإسلام ووحدة المسلمين، فتآمروا عليها راغبين في إجهال القرآن والتراث الإسلامي وتمزيق وحدة العرب والمسلمين .

بدأت المؤامرة الفعلية على اللغة العربية في سنة (1882 م), بعد الاحتلال البريطاني لمصر على يد اللّورد "دوفرين" الذي رفع تقريرا دعا فيه إلى معارضة اللغة العربية الفصحى وتشجيع اللهجة العامية المصرية واعتبارها أساس بناء منهج الثقافة والتربية والتعليم في مصر وقال: " إنّ أمل التقدم ضعيف في مصر طالما أنّ العامة تتعلم الفصحى – لغة القرآن – كما هي في الوقت الحاضر" (1) .ولم يلبث المبشر "وليم ويلكوكس" الذي كان يعمل مهندسا في الحملة الاستعمارية البريطانية على مصر أن دعا في خطابه عام (1883م) إلى نشر اللغة العامية

والتأليف بها ، و أطلق على خطابه عنوانا خطيرا ، هو " لماذا لا توجد قوة الاختراع عند المصريين » ، و كانت إجابته – بالطبع – " إنّ السّر في ذلك هو اللغة العربية الفصحى، و أنّ سبيل إيجاد قوة الاختراع هو اتخاذ العامية بديلا ... " (2).

لقد ناصر مؤامرة استعمال اللهجات بدلا من اللغة العربية الفصحى كثير من المستشرقين الذين ألفوا في ذلك الكثير من الكتب والقواميس , منهم : كوسان ذي برسفال الذي كتب كتابا في " قواعد العامية الشرقية و المغربية "، و كتب ماسينيون كتابا في "لهجة بيروت العامية" سنة (1911م) ، و كتب في السنة التالية كتابا آخر في " لهجة بغداد العامية" سنة (1912م)، وكتب بن سميل كتابا في " لهجة مراكش العامية" في سنة (1918م) ، وكتب برجشتراسر

"Berjestraser" كتابا في "عامية دمشق" سنة(1924م) ، وكتب لويس مرسيه كتابا في " عربية مراكش " في(1925م)، كما كتب العشرات من مثل هذه الكتب لنفس الهدف [3] .

لقد قام المستشرقون بإدخال تدريس اللهجات العربية في مدارسهم وجامعاتهم ، بل وأنشأوا لها مدارس خاصة في بعض الأحيان و أسندوا تدريسها في أول الأمر إلى أبناء العرب [4] .

لقد أثرث هذه الدعوات كثيرا في الحياة الأدبية المعاصرة و أيدها الكثير من أدبائنا من المستشرقين العرب منهم،سلامة موسى الذي "جند قلمه الطيّع وأسلوبه اللين ومنطقه السهل للدعوة إلى نبذ الفصحى التي ورثناها من بدو الجاهلية في عصر الناقة، ويراد لنا أن نتعامل بها في عصرالطائرة"[5]،وألف في هذا كتاب "البلاغة العصرية و اللغة العربية " [6] والخوري مارون غصن،الذي اجتهد كثيرا في هذا الأمر، و ألف كتبا منها "بستان السلوى" سنة (1911م)، و" درس و مطالعة "سنة (1924م) ، و"حياة اللغة وموتها : اللغة العامية " سنة (1926 م) .

لقد اجتهد أتباع هذه المؤامرة و عقدوا مؤتمر "برمانا" في لبنان سنة (1973م)، لجعل اللهجات رسمية، حضره عدد قليل من اللبنانيين ونفر من العرب غير اللبنانيين، وكثرة من الأجانب كان جلهم من الرهبان اليسوعيين ، لكن صيحات قوية من بعض المخلصين للغة العربية الفصحى كشفت عنه و أذاعته مما جعل شيخ الأزهر عبد الحليم محمود يحذر منه و يشجبه قائلا : « إنّ هذا المشروع واضح الهدف في هدم معالم اللغة العربية ، وتبعا لذلك البُعد بها و بأهلها عن القرآن الكريم ثم ما ينتج عن ذلك من مساس بالإسلام وأصوله كما هي مصونة في كتاب الله و سنة رسوله الكريم، و ذلك إلى إيجاد الهوة الواسعة بين ما تئول إليه اللغة لا قدر الله و ما احتوته من تراث في صورتها السليمة يمتد عبر أربعة عشر قرنا ... " (7) .

يأخذ أتباع هذه المؤامرة مثال اللغة اللاتينية التي ماتت وأنتجت لغات أوربية جديدة استمدت من اللهجات القومية فتباعدت عن بعضها البعض،وأصبحت تحتاج لمترجمين للتواصل بينهم، وقد أصبحت اللاتينية للقلة القليلة من رجال الدين . فاستعمال اللهجات بدلا من اللغة العربية الفصحى سيبلبل الألسن ويبعد بين العرب و المسلمين بل و بين العرب أنفسهم ، كما سيجهل التراث والدين الإسلامي والقرآن الذي سيصبح طلاسم .

لقد شجع الشعوبيون كثيرا هذه المؤامرة ، ورأوا أنّ اللغة العربية دخيلة عنهم ، وعلى حد تعبير أحد الدعاة للفرعونية في مصر سنة (1928م) : « إنّ اللغة العربية تبعثر وطنيتنا المصرية، وتجعلها شائعة في القومية العربية ، فالمتعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب ويعجب بأبطالها ، بدلا من أن يشرب الروح المصرية ويدرس تاريخ مصر » [8] ، و خاصة أنّ بعض مفكري مصر أصبحوا يعيشون النعرة الفرعونية التي كانت قد نشرتها حملة نابليون بونابرت على مصر سنة (1798 م) ، جعلت بعضهم ينسب نفسه إلى مصر الفرعونية لا إلى الإسلام ولا إلى العروبة كما نرى في بيت لحافظ إبراهيم قال فيه :

أنا مصري بناني من بنى *** هرم الدهر الذي أعيا الفنا [9].

كما أن غاندي زعيم الهندوس أعلن رأيه أنّه من الخير لسكان الهند ألا يلجأوا إلى اللغة الأُرْديّة - لأنّها تكتب بأحرف القرآن وهو كتاب المسلمين وحدهم - وعلى الهند أن تختار اللغة المحفوظة عن الأمهات فقط وهي اللغة السنسكريتية [10].

على أنّ هناك من المفكرين والأدباء - على رأسهم غالي شكري - دعوا إلى التخلي عن كل اللهجات العربية واستعمال اللهجة المصرية القاهرية بدلا منها و من اللغة العربية الفصحى ، وذلك لأنها « لغة الجماهير الشعبية ، تتفوق على الفصحى بقدرتها على متابعة دقائق الحياة المعاصرة ، والنفاذ إلى بواطننا واستيعاب قضاياها الكبرى ، مقابل انعزال الفصحى عن اللغة الشعبية المنطوقة و عجزها المتعلق بفقرها ومحدودية مفرداتها إزاء غنى المنتجات و المبتكرات المادية و

المكتشفات والمستجدات ، فكلما ظهر منتج أو اختراع جديد، هرعت اللجة المصرية القاهرية المحكية إلى إيجاد مرادف قد يستعمل في كلّ العالم العربي، في حين تبقى قواميس الفصحى مقفلة عن ذلك، وقد يكون ذلك للأبد .

على أنّ هناك من ينادي باستعمال لهجة عربية بيضاء يفهمها كلّ العرب في وسائل الإعلام، وفي المعاملات بدلا من اللغة العربية الفصحى .

و مع أنّ خطة استعمال اللهجات بدلا من الفصحى لم يكتب لها النجاح رسميا ، إلا أنّ الواقع يبرهن أن دولا عديدة تستعمل لهجاتها في مجالات عدة ، بل و حتى في التدريس في المدارس والجامعات،كما أنّ إنتاجات أدبية كثيرة كتبت وتكتب باللهجات و يُشجَّع أصحابها بالجوائزوالألقاب ، بل وحتى الترجمة من اللغات الأوربية إلى العربية يتم بعضها باللهجات ويذكرأنّ محمد عثمان جلال كان"أوّل من خلع ثوب اللغة الفصحى عن القصص التي ترجمها و اتخذ العامية و الزجل أداة للتعبير و ترجم بعض قصص موليير ، وأساطير لافونتين » [12] .

على أنّ هناك من دعا التدرج للوصول إلى هدف العامية بتقريب العامية للفصحى أو النزول بالفصحى إلى اللغة العامية، أو ما يسمى باللغة الوسطى وأيضا بلغة الصحافة [13]، و كان على رأس هؤلاء توفيق الحكيم الذي ذكر أنّه " يجب الانتفاع بما في العامية كغذاء تطعم به الفصحى لتقوى وتعيش،إذ إنّ العامية فيها بعض حيوية الحاضر، كما أنّ الفصحى فيها عبقرية الماضي. ولابد لكل حياة بما فيها اللغة من أن تشمل الماضي والحاضر مع التطلع إلى المستقبل " [14]، وأيضا أحمد زكي الذي ذكر مبيّنا أن " من غير الممكن رد العربية الفصحى كما يفهمها الغلاة إلى الملايين من هذه الألسنة ، كلّ الذي نستطيع أن نفعله أن نقوّم هذه الألسنة المعوجّة ما أمكننا التقويم، وأن نُذهب عنها بالساقط من اللفظ والمبتذل من التعبير، وينتج من هذا تقارب بين المنطوق والمكتوب وعندئذ تخلق لغة وسطى لا ينكرها عربي ولا تكبر على عامي " [15].

لقد جاءت دعوة أخرى للإطاحة بالعربية الفصحى، و هي كتابتها بالحروف اللاتينية التي نادى بها المستشرق ماسنيون في محاضرة عامة ألقاها في

باريس عام (1929 م) ، ومن بين ما جاء فيها أنّ " ذلك حلّ لمشكلة الحروف وحركاتها، و أنّ اللغة بذلك تصبح ناشطة قادرة على أن تجاري الزمان ... " [16] ، و قد وصلت هذه المؤامرة إلى ذروتها عندما قَدّم عبد العزيز فهمي باشا إلى المجمع اللغوي في القاهرة في 24 يناير 1944 مشروعا يرمي إلى « اتخاذ اللاتينية لرسم الكتابة العربية بدعوة أنّ المحافظة على الفصحى و جعل قراءة مَاهُو مكتوب بها لا يلحن في قراءته و لا يخطئ ، و كتب كتابا في ذلك تحت عنوان "الحروف اللاتينية للكتابة العربية" [17] .

لقد واجهت هذه المؤامرة رفضا كبيرا من قبل الكثير من المفكرين و الأدباء العرب و كان في مقدمتهم عبد الوهاب عزام و عباس العقاد و محمد كرد علي و غيرهم ... و نادى بعضهم قائلين : " ... إياكم وهذا الأمر ، إني أفهم اقتباس الحروف اللاتينية في بلاد مثل تركيا وإيران ، أما في مصر فالحذر من هذا ، لأنّ الحروف العربية هي حروف لغة القرآن و إذا مَسَسْتم الحروف العربية مَسَسْتم القرآن، بل هدمتم صرح وحدة الإسلام ... لا يجب أن تُمَسّ العربية مطلقا ، لأنّ الإسلام أساسه اللغة ، فإذا ضاعت اللغة ضاع الإسلام"[18] .

وعلى الرغم من هذا الرفض القاطع ، فإنّ بعض الأدباء الحاقدين على اللغة العربية سرعان ما ألّفوا كتبا كتبوها بالحروف اللاتينية ومن بينهم : أنيس الخوري فريحة الذي كتب كتابه "معجم الألفاظ العامية"، وسعيد عقل الذي أصدر كتابا اسمه "يارة" سنة (1961م) [19] .

و الواقع أنّ دعاة هذه المؤامرة قد فاتهم أنّ هناك أحد عشر حرفا في اللغة العربية و هي : " ث ,ح ,خ, ذ , ص, ض, ط ,ظ ,ع ,غ , ق " ليس لها مقابل في اللغة اللاتينية و إن حاولوا رسم هذه الحروف بحرفين اثنين فلن يعطيا الصوت الذي يعطيه الحرف العربي .

على أنّ هناك لغات كانت تُكتب بالحروف العربية نَجحت هذه المؤامرة في جعلها تكتب بالحروف اللاتينية و تعد اللغة العثمانية التركية أشهرها ، حيث

إنّ مصطفى كمال أتاتورك جعلها, منذ (1923م)، تُكتب باللاتينية بل وأجريت تصفية للتركية من الكلمات العربية وأخرجوا منها (13650)كلمة عربية حلّت مكانها كلمات تركية بديلة حين اعتبرت الكلمات العربية أجنبية ، و حينما لم يجد كلمات تركية بديلة جاءوا بكلمات من الفرنسية و الإنجليزية ، و فقدت تركيا بهذا الفعل تراثا ضخما كان قد كُتب باللغة التركية العثمانية التي كانت تكتب بالحروف العربية، كما أنّ الحروف اللاتينية لم تستوعب اللغة التركية وأفقدتهم تصوير الأحرف المتشابهة ، كالغاء و الحاء والصاد والضاء والظاء والعين . إنّ هذه الحروف لا يمكن أن تجد في اللاتينية ما يصورها بحرف واحد يقوم مقامها . [20] كما عملت بريطانيا , في شرق أفريقيا , على صرف الناس عن اللغة العربية و بعثت اللغة السواحلية من جديد ، و كما كانت السواحلية تُكتب بالعربية أمرت بكتابتها بالحروف اللاتينية ، و وضعت الأسس و القواعد لها ، و ذلك منذ (1932م) [21]. ، كما اجتهدت بريطانيا أيضا مع قبائل الهوسا الأفريقية المنتشرة ما بين الصحراء شمالا والكاميرون وتوجو وداهومي ونيجريا جنوبا لجعلهم يبتعدون عن الأبجدية العربية في كتابتهم للغتهم و اتخاذ الأبجدية اللاتينية بديلا عنها[22] . كما ألغت هولندا الحروف العربية من اللغة الملاوية التي ظلت تُكتب بها لستة قرون كاملة واستبدلتها بالحروف اللاتينية[23].

لقد ظهرت أيضا محاولة أخرى للقضاء على اللغة العربية الفصحى تحت اسم تهذيب أو تيسير أو إصلاح أو تجديد اللغة العربية الفصحى ، وهي كما قال محمد محمد حسين : « أسماء لبقة مرنة تحمل وراءها هدفا خطيرا ، هو التحلل من القوانين و الأصول التي صانت اللغة خلال خمسة عشر قرنا أو يزيد ... » [24].

تتلخص دعاوى هذه المؤامرة في إبطال النحو و قواعد الإعراب التي تُصعّب اللغة ، و كان شعارهم في ذلك العبارة التي كتبها المستشرق وليام سبيتا " Spitta " في كتابه " قواعد العربية العامة في مصر " وهي : «كلّ النّاس يقرءون

ليفهموا و العربي يفهم ليقرأ »[25]. و اقترح بعض هؤلاء التعبير عن الحركات (فتحة وضمة وكسرة) بحروف العلة ، ألف ووار و ياء ، و بإثبات التنوين ورسمه في الكتاب نون، وبرسم الشدّة حرفا مكررا . فيكتبون " مُحَمَّدٌ = موحامادون (رفعا) , موحامادان (نصبا) ، (موحامادين (جرّا) [26].

وهنا , نتساءل كيف استطاعت قواعد النحو أن تعيش أكثر من ألف سنة ، و هي صعبة إلى هذا الحد الذي يرونه ، و كيف تبحّر العربي و غير العربي في لغة أجمع الأعداء على أنّها صعبة و معقدة , وكيف بنت حضارة سادت العالم وطوّرت العلوم في شتّى مجالات الحياة , وكانت مصدرا مُلهما ومُعَلّما للحضارة الغربيّة الحاليّة , بقواعدها وحروفها وحركاتها التي يهاجمونها الآن ..؟

إنّ إثبات الحركات في صُلب الكلمات – التي يدعون إليها – يضخّم حجم الكتاب العربي ، ولاسيما إذا أضيف إليه إثبات الإدغام والتنوين ، وكلّ ذلك بدون طائل ، لأنّ قواعد الكتابة الراهنة تفي بالغرض ولا يحتاج معها القارئ إلا إلى القليل من الحركات كل بضعة سطور .

والواقع ، إنّ قواعد اللغة العربية أسهل بكثير من قواعد بعض اللغات العالمية ، فالنحو و الصرف في اللغة الفرنسية أشد تعقيدا ، فالأفعال فيها – مثلا – تنقسم إلى ثلاث مجموعات، و في كلّ مجموعة شواذ يتسببون إليها ، و لكن لا يصرّفون فيها ، فضلا على التأنيث والتذكير اللذين هما على غير منطق واضح، وكثرة أزمنة التصريف التي يقابلها في العربية ثلاثة أزمنة فقط ، و هي الماضي والمضارع و الأمر، كما أنّ تسعين بالمئة من الفرنسيين أنفسهم يغلطون في الإملاء ، و كلّ الأجانب عندهم يشتكون صعوبة التهجئة والقراءة الصحيحة [27].

أمّا الإنجليزية , وإن كانت تبدو أيسر من الفرنسية، فالتراكيب الاصطلاحية فيها " Idioms " غير قياسية ولابد من حفظ كلّ واحد منها على حدة ، والهجاء فيها غير قياسي ، و فيها ست صيغ للزمن كما في الفرنسية , بدلا

من ثلاث صيغ في العربية . وليس كلّ ما تتضمّنه الكلمات باللغتين من حروف يُنطق ، كما أنّ بعض الحروف لها أكثر من صوت ، و بعض الأصوات تعبر عنها عدة حروف منفردة , و أحيانا يُعبّر عنها حرفان ، و ليس كاللغة العربية التي فيها لكلّ حرف صوت واحد ، و لكلّ صوت حرف واحد ، كما أنّ الحرف العربي أحلى للنظر يتفنن فيه الخطاطون من كلّ صوب في العالم [28] .

هذا و قد ظهرت مؤامرة أخرى تدعو إلى الكف عن الاهتمام بالأدب العربي القديم ، فهي تارة تدعو إلى الإقليمية ، و ترى أنّ الأدب العربي كان إقليميا اختلف من إقليم إلى إقليم ، و هو لا يزال إقليميا يختلف من إقليم إلى آخر ، و يجب أن يبقى إقليميا يساير خصائص كلّ إقليم من الأقاليم ، فتعنى مصر بالأدب المصري، والعراق بالأدب العراقي ، و هكذا [29] ،و تارة تدعو إلى العناية الخاصة بالأدب الحديث و تارة أخرى تدعو إلى العناية بالأدب الشعبي ، والهدف من وراء ذلك هو صرف الناس عن تاريخهم الأدبي الموحد والعودة بطريقة أو أخرى إلى استخدام اللهجات حتى تتبلبل الألسن بين العرب و المسلمين .

و الواقع ، إنّه مهما اجتهدت مؤامرات أعداء اللغة العربية الفصحى فسوف لن يحدث لها ما حدث للآشينية وبعض اللغات القديمة الأخرى ، و ذلك لأنّها مرتبطة بالدين الإسلامي والقرآن ، بل إنّ هذه المؤامرات والمكائد بُثّت لتفتيت العالم الإسلامي والقضاء على وَحدته لأنّهم يعرفون قوّته وخطره عليهم ...

ولذلك فإنّ كلّ ادّعاءاتهم ليست السبب الحقيقي لضعفها وازدرائها ، وإنّما يعود لب السبب – في واقع الأمر – إلى الضعف الاقتصادي والسياسي والثقافي والاجتماعي , هذا الواقع الذي تعيشه الدول العربية والإسلامية حاليّا . فما كانت الإنجليزية – برغم عيوبها الكثيرة–لغة عالمية لولا التطور الاقتصادي والسياسي والثّقافي والاجتماعي الذي تعيشه الدول الناطقة بها . فالاقتصاد القوي ينشئ سياسة قوية ,كما أنّ الثّقافة الأصيلة تنشئ مجتمعا واعيا وقويّا تترجم اللّغة – بكلّ مصطلحاتها ... – تطوّره وتفوّقه ؛ فاللّغة الصّينيّة أو

اللّغة اليابانيّة , مثلا , لا تعابان على الرّغم من أنّهما لغتان مقطعيّتان صعبتان , وذلك لكونهما ترتكزان على اقتصاد قويّ وسياسة قويّة وثقافة أصيلة ومجتمع واع .

الهوامش :

(1) أنور الجندي، المؤامرة على الفصحى لغة القرآن، دار الاعتصام للطبع و النشر، القاهرة، دت، ص4.
إبراهيم النعمة ، مقال : لغتنا العربية أمام تحديات الغزو الفكري، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 221، الكويت، جمادى الأولى 1403 هـ فبراير ، مارس 1983م، ص 93 .

(2) أنور الجندي ، نفس المصدر و الصفحة .

(3) محمد محمد حسين، اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر، دار الإرشاد ، دت، ص 46 .

(4) أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق و أثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر ، القاهرة ، 1998م ، ص 669 .

(5) سمايلوفتش ، نفس المرجع ، ص 675 .

(6) إبراهيم النعمة ، ص 94 .

(7) أنور الجندي ، المؤامرة ، ص 9 و 10 .

(8) محمد محمد حسين ، اتجاهات هدامة ، ص 48 .

(9) محمد قطب، واقعنا المعاصر ، مكتبة رحاب، الجزائر، دت ، ص 203 .

(10) إبراهيم النعمة، ص 95 .

(11) صلاح صالح، أفكار حول العامية و الفصحى، مجلة الناقد، عدد 26، الريس للكتب و النشر، الرياض، 1990 م ، ص 77 .

(12) أنور الجندي، اللغة العربية بين حماتها و خصومها، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، دت، ص 227.

(13) محمد محمد حسين، اتجاهات هدّامة ، ص 47 .

(14) أنور الجندي، اللغة العربية، ص 226 .

(15) نفسه ، ص 235 .

(16) نفسه ، ص 115 .

(17) سمايلوفتش ، ص 675 .

(18) أنور الجندي ، اللغة العربية ، ص 127 و 133 .

(19) إبراهيم نعمة، ص 94 .

(20) أنور الجندي، العالم الإسلامي و الاستعمار السياسي و الاجتماعي و الثقافي ، دار الكتاب اللبناني، 1973 م ، ط2، ص 357 .

(21) أنور الجندي، العالم الإسلامي ، ص 378 .

(22) عماد الدين خليل، أحقاد و أطماع التبشير في أفريقيا المسلمة، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، ط2، 1979 م ، ص 19 .

(23) أنور الجندي، العالم الإسلامي، ص 369 .

(24) المؤامرة على الفصحى ، ص 6 .

(25) محمد محمد حسين ، اتجاهات هدّامة ، ص 52 .

(26) نفسه ، ص 53 و 55 .

(27) أنور الجندي ، اللغة العربية ، ص 125 .

(28) نفسه ، ص 124 .

(29) سمايلوفتش ، ص 657 .